٩ / ١ / ١٤٤٧ هـ

وما كيد فرعون إلا في تباب

الخطبة الأولى

الحَمْدُ للهِ مُقَدِّرِ المَقْدُورِ، وَمُصَرِّفِ الأَيَّامِ وَالشُهُورِ، وَمُجْرِي الأَعْوَامِ وَالدُّهُورِ، أَحْمَدُهُ تَعَالَى وَأَشكُرُه، وَأَتوبُ إِلَيهِ وَأَسْتَغفِرُهُ، إِلَيْهِ تَصِيرُ الأُمُورُ، وَهُوَ العَفُوُّ الغفُورُ.

وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَنْفَعُ صَاحِبَهَا يَوْمَ يُبعْثَرُ مَا فِي القُبُورِ، وَيُحَصّلُ مَا فِي الصُّدُورِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ المُجْتَبَى، وَالحَبِيبُ المُصْطَفَى وَالعَبْدُ الشَّكُورُ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا اِمْتَدَّتِ البُحُورُ، وَتَعَاقَبَ العَشِيُّ وَالبُكُورُ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَومِ النُّشُورِ، وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كثيرًا

تكادُ تكون قصة موسى عليه السلام أكثرَ قصة تكررت في القرآن, وما ذاك إلا لكثرة عبرها, وعظيم أثرها,

قصة موسى مع فرعون تمثّل قصة الطاغيةِ الجبار, والمصلحِ الناصح, تمثل قُرب الفرجِ بعد الاشتدادِ, تُمثّل حكمة الله في تصاريف القدر, إلى غير ذلك من الحكم

وليس بنا اليومَ سردٌ لأحداثها، إنما هو مرور سريع على بعض المواقف فيها ..
فِرْعَوْنُ صَاحِبُ الجْاهِ وَالسُّلْطَانِ، فِرْعَوْنُ صَاحِبُ الْمُلْكِ وَالْمَالِ، كُلُّ مَنْ فِي مِصْرَ يَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ وَيَنْتَهِي بِنَهْيِهِ، وَفِي أَوْجِ هَذَا الْمُلْكِ وَهَذِهِ السَّطْوَةِ يَبْعَثُ اللهُ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿اِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾..

يَتَلَقَّيَانِ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ اللهِ وَهُمَا مُسْتَحْضِرَانِ ذَلِكَ الْجَبَرُوتَ وَالطُّغْيَانَ فَيُعَبِّرَانِ عَنْ مَشَاعِرِهِمَا الْبَشَرِيَّةِ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾، وَلَا عَجَبَ فِي صُدُورِ ذَلِكَ مِنْهُمَا.. فَفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ قُوَّةٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا وَلَا تَزَالُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى الْيَوْمِ تَتَعَجَّبُ مِنْ مَظَاهِرِهَا..

فَإِذَا بِالرَّدِّ يَأْتِي مِنَ اللَّهِ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ فَإِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ مَعَهُ الْمَلَأُ وَالْجُنْدُ فَأَنْتُمْ مَعَكُمْ اللَّهُ يَسْمَعُ وَيَرَى، وَإِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَتَغَلَّبُ عَلَى النَّاسِ بِالْعِدَّةِ وَالْعَتَادِ فَأَنْتُمْ مَعَكُمْ رَبُّ الْعِدَّةِ وَالْعَتَادِ

تَبْدَأُ أَوَّلُ مُوَاجَهَاتِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ.. وَيَحْصُلُ ذَلِكَ الْحِوَارُ الْمَشْهُودُ.. مُوسَى يَعْرِضُ الْبَرَاهِينَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحَقِّ.

يَسْتَمِعُ فِرْعَوْنُ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فَيَظْهَرُ أَوَّلُ خَوَارٍ لِلْبَاطِلِ.. هَا هُوَ فِرْعَوْنُ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْحُجَّةِ مَا يُوَاجِهُ بِهِ الْحَقَّ فَيَلْجَأُ إِلَى الِاسْتِهْزَاءِ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ وَيَكِيلُ بِالِاتِّهَامِ ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى التَّهْدِيدِ ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾..

يُحَافِظُ مُوسَى عَلَى نُقْطَةِ قُوَّتِهِ وَهِيَ الْحَقُّ الَّذِي مَعَهُ.. فَيُرِيهِ مَا مَعَهُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْعَصَا وَالْيَدِ، فَلَا يُقِرُّ لَهُ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ وَيَعْرِضُ عَلَيْهِ التَّحَدِّي ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾..

يَسْتَعِدُّ مُوسَى لِلتَّحَدِّي وَثِقَتُهِ بِاللَّهِ، وَيَحْضُرُ فِرْعَوْنُ الْمَوْعِدَ وَثِقَتُه بِجُنْدِهِ وَسَحَرَتِهِ.

فريق الْحَقِّ يَتَكَوَّنُ مِنْ رَجُلَيْنِ، وَفريق الْبَاطِلِ جُمُوعٌ لَا حَصْرَ لَهَا يَقُودُهُمْ فِرْعَوْنُ وَسَحَرَتُهُ.

يَبْدَأُ التَّحَدِّي ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.. يُشَاهِدُ مُوسَى ذَلِكَ الْمَوْقِفَ فَيَسِيطِرُ عَلَيْهِ الضَّعْفُ الْبَشَرِيُّ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فَتَتَدَخَّلُ الْمَعِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي وَعَدَهُ رَبُّهُ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾

وَهُنَا! حَدَثَتِ الْمُفَاجَأَةُ!

مُفَاجَأَةٌ قَاتِلَةٌ لِفِرْعَوْنَ، وَسَارَّةٌ لِمُوسَى، لقد آمن السحرة!

جُنَّ جُنُونُ الطَّاغِيَةِ.. وَكَمَا هِيَ عَادَتُهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾

رد السحرة على تهديد فرعون ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كَانُوا سَحَرَةً فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَشُهَدَاءَ آخِرِ النَّهَارِ حِينَ قُتِلُوا." [رواه عبدالرزاق في مصنفه]

ويَسْتَمِرُّ فِرْعَوْنُ فِي الْمَزِيدِ من الاتهامات ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

مُوسَى يُذَكِّرُ قَوْمَهُ وَيُثَبِّتُهُمْ وَيَدُلُّهُمْ عَلَى مَفَاتِيحِ النَّصْرِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فَبِالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ مَعَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى سَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَكُمْ يَا أَهْلَ الْحَقِّ..

وَفِي لَحْظَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ، بَيْنَمَا كَانَ الْهُدُوءُ يَعُمُّ مِصْرَ وَأَرْجَاءَهَا، يَأْتِي الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ لِمُوسَى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾

يَشْتَدُّ الْمَسِيرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وفِرْعَوْن وَجُنْده يلحقون بهم، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ الْبَحْرِ.. الْبَحْرُ مِنْ أَمَامِهِمْ وَجُنْدُ فِرْعَوْنَ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فَنطَقَ موسى بِمَا وَهَبَهُ رَبُّهُ مِنْ إِيمَانٍ وَثِقَةٍ بِنَصْرِهِ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾..

ثُمَّ حصَلَتِ النِّهَايَةُ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

أَيْنَ مُلْكُكَ يا فرعون؟! أَيْنَ جُنْدُكَ؟! أَيْنَ الْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِكَ؟! ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ لفرعون.. هَلْ نَفَعَكُمْ سَيِّدُكُمْ فِي الدُّنْيَا؟! أَمْ سَيُدَافِعُ عَنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ؟! ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾

وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ فَهَنِيئًا لَكُمْ هذا النصر ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾

حَصَلَ النَّصْرُ الْمُبِينُ فِي يَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ مُحَرَّمٍ.. فَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَأَغْرَقَ أَعْدَاءَهُمْ، وَلِذَلِكَ صَامَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نَصْرِهِ، ثُمَّ صَامَهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْتِدَاءً بِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ..

وَقَالَ فِي فَضْلِهِ: "صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ."

وقد يتساءل بعض الناس ، ما حكم صيام يوم عاشوراء هل هو مستحب أو واجب ؟

فدعونا نسمع الإجابة من النبي صلى الله عليه وسلم

، روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للناس:

هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر.

واحرصوا أيها الناس على تصويم صبيانكم وأولادكم هذا اليوم ، روى البخاري عن الصحابية الربيع بنت معوذ قالت: كنا نصوم يوم عاشوراء، ونصوم صبياننا الصغار ونجعل لهم اللعبة ، فإذا بكى أحدهم وسَأَلنا الطعام أعطيناه اللعبة تُلْهِيهِمْ حَتَّى يُتِمُّوا صَوْمَهُمْ

ويُستحَبُّ للمُسافر الذي لا يشقُّ عليه الصوم أن يصومَ عاشوراء، لأنّ فضله يفوت وقد كان الإمامُ ابن شهاب الزُّهريُّ يصوم عاشوراءَ في السفر فقيل له أنت تُفطِر في رمضان إذا كنت مسافرًا فقال رحمه الله: (إن رمضان له عدة من أيام أخر، وإن عاشوراء يفوت) [رواه البيهقي في شعب الإيمان]

ثم اعلموا يا رعاكم الله أن الشارع الحكيم لم يخصَّ عاشوراءَ بعبادةٍ سوى الصيامِ، وبناءً عليه فلا يُشرعُ إحداثُ عبادةٍ فيه، قالﷺ: (مَنْ أَحْدثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهُو رَدٌّ).